اصل الكتابة

اعظم مصداق لقول الشاعر "كلُّ علمٍ ليس في القرطاس ضاع" أنَّ فن الكتابة لمَّا لم يكتب تاريخ اصلهِ واسم مستنبطهِ ومكان انتشائهِ والتقلبات التي طرأت عليهِ سدَل الدهر عليهِ برقع الخفاء فغمض عنا اصلهُ وضاعت منا معرفة تاريخهِ . فاسمى اصل حافظ كل المعارف التي وصلت الينا مفقودًا وكاشف الغوامض غامضًا محجوبًا قد اكتنفتهُ ظلمات الادهار وظلَّلتهُ برافع الاعمال . ولم يبقَ حولهُ ضوءٌ يهدي العقل اليهِ الاَّ شعيعات قليلات استضاء بها ابناء هذا الزمان فازاحوا بعض الغوامض كما سترى

الكتابة صناعة يعبَّر بها عن الافكار بعلامات منظورة وهي تشمل كل ما اصطلح عليهِ البشر للتعبير عن افكارهم سواءٌ كان بالصور كما شاع قديمًا ولا يزال جاريًا بين كثيرين من البرابرة الآن او بالارقام او بالحروف او بغيرها . ثم اذا سرَّحنا النظر في جميع الكتابات المعروفة وجدنا ان العلامات المستعملة فيها منقسمة الى قسمين ممتازين قسم علاماتهُ صورٌ للاشياء وتُسمَّى الكتابة بهِ الكتابة الصوريَّة وقسمٌ علاماتهُ صورٌ الالفاظ لا للاشياء وتسمَّى الكتابة بهِ الكتابة اللفظيَّة ولنبسط الكلام على هذين القسمين تقريبًا لفهم ما يأتي . فالكتابة الصوريَّة إمَّا ان تشبه صورها مصوَّراتها مشابهة حقيقيَّة كصورة الرجل للدلالة على الرجل وصورة الفرس للدلالة على الفرس وإمَّا ان تشبه صورها مصوَّراتها مشابهة مجازية كصورة ريشة الطاووس في الخط الهيروغليفي للدلالة على الصدق وصورة الرجل يضرب راسهُ بفاس للدلالة على الشرير زعمًا بان الانتحار اي قتل الذات اعظم الشرور . وإمَّا ان لا يكون بينها مشابهة كصورة نبتين مائيين مضمومين معًا للدلالة على البلاد العليا والبلاد السفلى . والكتابة اللفظية إمَّا ان تكون العلامة فيها موضوعةً للفظ كلمة بتمامها كما في الخط المكسيكي والصيني واما ان تكون موضوعة لمقطع واحد من الكلمة كما في الخط الحبشي واما ان تكون موضوعة للمفردات التي يتألَّف منها المقطع كالحروف الهجائيَّة المستعملة عندنا وعند بقية الشعوب المتمدنة

لا تخلو كتابة من الكتابات المعروفة من ان تكون علاماتها صورية او لفظية او صورية ولفظية معًا . غير ان العلامات الصورية غالبة في القديمة منسوخة في الحديثة وذلك يدلُّنا على ان الكتابة كانت في بدء امرها صورية ثم تحوَّلت الى لفظيَّة على توالي الايام . وبالنظر الى ذلك قسم البعض الكتابة القديمة الى ثلثة اقسام وهي

الاوَّل الكتابة السفينية وتُعرَف بالخط المسماري ايضًا سُمِّيت سفينية لشبهها بسفين البنَّاء وكانت تكتب بطبع قلم مثلث الراس على الآجرّ الطريّ فيبقى اثرهُ مطبوعًا على الآجرّ بعد تصلبهِ والمرجَّح

ان هذه الكتابة كانت اولاً صوراً ثم جرى عليها الحذف والتغيير لمناسبة الكُتّاب على تمادي الايام فصارت اشكالها على ما هي عليهِ . وهي صنفان صنف استنبطهُ الطورانيون (اي اهل القطر المستقلة القدماء) واستعملهُ الكلدانيون والاشوريون والماديون والارمن (من القرن التاسع الى السابع قبل المسيح) وغيرهم وهذا يُسمّى الطوراني . وصنف استعملهُ الفرس ويسمّى الايراني او الفارسي . والاوّل علاماتهُ صورية حقيقية ومجازية ولفظية مقطعية وليس فيهِ حروف هجائية والثاني علاماتهُ في الاصل مقطعية ثم ترقّى حتى صار حروفًا هجائية . وقد حل بعض الكتابة السفينية العلّامة كرتنديسنة ١٨٠٢ ثم تبعهُ في قراءتها رسك وبرنوف ولصن ورولنصن وغيرهم من العلماء فكشفوا منها اموراً كثيرة تاريخية

والثاني الكتابة المصرية او الخط الهيروغليفي وهو ثلثة اصناف الهيروغليفي المحض اقدم البقية واخشنها وهو صوريٌّ محض والهيراتي اي المقدّس اشتقّ من الهيروغليفي المحض في ايام الدولة التاسعة على الاقل وهو خط الكهنة وعلاماتهُ صور مجازية او لفظية والعامي وهو مستخلص من الهيراتي وابسط منهُ واقرب الى اللفظي الهجائي كُتِب بهِ كلام العامة وهو الخط الذي في البيروس . اما الذي حلّ الكتابة الهيروغليفية فهو شامپوليون الفرنسوي وتبعهُ جماعة من العلماء فقرأوا الكتابات المصرية . هذا وبين الخط الهيروغليفي والسفيني قرابة كلية حتى انهما ينسبان الى اصل واحد ومعظم الفرق بينهما ان كل علامة في الهيروغليفي خاصّة بلفظٍ واحد واما في السفيني فتدلُّ على الفاظ شتى

والثالث الكتابة الفينيقية وهي لفظية هجائية ككتابة المتمدنين الآن

قلنا آنفًا ان الكتابة مجهولة الاصل ولشدة لزومها وعظم فائدتها زعم القدماء ان الآلهة اهبطتها عليهم فزعم المصريون ان توط اله الكلام والعلوم والفنون علّمهم اياها وزعم اليهود ان مستنبطها اخنوخ او آدم او الله تعالى نفسهُ وزعم اليونان انهُ قدمس او انهُ هرمس اله الكلام والبلاغة . ومهما يكن من زعمهم فلا مراء في ان الكتابة لم توجد على ما هي عليهِ دفعةً بل نمت وترقت وتهذّبت حتى بلغت هذا المبلغ كشأن سائر الموجودات الارضية . ولا يبعد ان اوّل من قصد تخليد ذكر حادثة صوّر بعض ما جرى فيها لان هذا اقرب الى الطبع واسرع الى ملاقاة الخاطر ما سواهُ . ألا ترى ان الموحشين في ايامنا يجرون هذا المجرى وان البكم اذا ارادوا ان يكلموك عن شخص وصفوا لك اوصافهُ الظاهرة فلو اقتضى ان يخبروك عنهُ وانت غائب لصوّروا لك صورتهُ من اوّل وهلةٍ . ويؤيّد ذلك ان الصور تغلب في الكتابات القديمة كما اسلفنا وعليهِ يترجح معنا ان الكتابة ابتدأت بتصوير الاشياء . ولكن لما كانت الصور ولاسيّما صور المتقدمين الخشنة لا تؤدي الى ذهن الناظر اليها الاّ صور الذوات المحسوسة وتقصر عن تأدية المعاني والموجودات غير المحسوسة والعلاقات التي بين الموجودات محسوسةً كانت او غير محسوسة اقتضت الاحوال ان يهذّبوا الصور ويستعيروا منها

صور المحسوسات لغير المحسوسات او للمعاني او لما يلابسها او يلزم عنها. فصاروا اذا صوّروا الرجلين مثلاً لا يستدلون من الصورة على الرجلين فقط بل على المشي ايضاً واذا صوّروا الرجل يضرب راسهُ بفأس لا يستدلون على الرجل والفاس بل على معنى قتل الذات ثم انتقلوا الى لازم ذلك المعنى وهو الشر فعبروا بالصورة عن الشرير . وبذلك توصلوا الى التعبير عن الذوات والمعاني والعلاقات التي بينها ولكن تعبيرًا قاصرًا كثير الابهام والالتباس محتملاً للتناقض في تأويل جانب عظيم منهُ . فكانوا بالطبع يشعرون ان كتابتهم قاصرة عن تأدية معانيهم الى ذهن القارىء ويحاولون ان ينتقلوا الى طريقة اسهل منها واوضح فما زالوا يعالجون جيوش الصعوبات حتى أتيح لهم باعمال الفكرة وحدّة البصيرة ان ينقلوا الكتابة من تصوير الاشياء نفسها الى تصوير الفاظ اسمائها فصاروا يكتبون الرجل مثلاً بصورة تدل على لفظ اسمهِ بدلاً من ان يصوروهُ هو نفسهُ كما نكتب هذا الرقم ٥ للدلالة على الخمسة مهما كان معدودها فتحولت الكتابة اذ ذاك من الصورية الى اللفظية. ومن هذا النوع الكتابة الصينية فان اهلها يكتبون اسم كل مسمًّى بصورة وبذلك تكون صور الكتابة عندهم عديدة جدًّا . ويقال ان من في نواحيهم كاهل طنكوين وكورو ويابان يخطّون بخطهم مع تغاير لغاتهم الواحدة عن الاخرى فكل يفهم لغة الآخر اذا قرأها ولكن لا يفهمها اذا سمعها كما اننا نحن نفهم ارقام الهنود اذا قرأناها (ان كانت عين الارقام المستعملة عندنا) ولكن لا نفهمها اذا سمعناها لتغاير اسمائها في العربية والهندية

هذا ولا ريب ان الانتقال المذكور من الكتابة الصورية الى اللفظية يعدُّ من الاصلاحات العظيمة في صناعة الكتابة ولكنهُ لا يفي بالمطلوب على ما يرام لكثرة ما في الكتابة المشار اليها آنفاً من الاشكال التي يستغرق تعلمها زمانًا طويلاً فضلاً عن ان العمل بها عسر الاتقان كما يشهد بهِ كل من تعلم الصينية مثلاً . فلذلك لم يقف الناس عندهُ بل طلبوا التسهيل والوقوف على البسيط فوجدوا ان الالفاظ يمكن ان تردَّ الى مقاطع اقل منها عددًا فابدلوا وغيروا في الكتابات الاولى وزادوا عليها جاعلين العلامات صورًا للمقاطع التي تتألف منها الالفاظ كما رأينا في اواخر الكتابة السينية الطورانية واوائل الفارسية وكما يُرى الآن في اللغة الحبشية فان صور المقاطع فيها مئة واثنتان وثمانون صورة. وبذلك تسهلت الكتابة جدًّا ولكنها ما زالت كثيرة الصعوبات حتى فتح الله على بعض ذوي الالباب فحلّل المقاطع الى البسائط التي تألفت منها ووضع لهذه البسائط علامات هي الحروف الهجائية الشائعة عند جميع الامم المتمدنة في عصرنا هذا. فصار العرب يكتبون بتسعة وعشرين حرفًا وثلث حركات كل كلمات لغتهم ولو كتبوا بصور المقاطع لاحتاجوا الى مئات بل الوف من الصور

فهذه على ما يظهر كانت التغيرات التي طرأت على الكتابة حتى اوصلتها الى ما هي عليهِ . اما الذي ابتدأ بوضع هذه الصناعة فغير معروف . والذي نقلها من تصوير الاشياء الى تصوير اسمائها

غير معروف ايضاً والعلماء يبحث طويل فيهِ. ولعلَّ المصريين هم اوَّل من فعل ذلك فان الهيروغليفي المحض في كتابتهم يقتصر على صور الاشياء والهيراتي يجمع صور الاشياء والالفاظ والعامي يقرب الى اللفظي الهجائي اكثر من سواهُ. واما الذي نقلها من اللفظي الكامل او اللفظي المقطعي الى الحروف الهجائية فالبعض يزعمون انهُ موسى الكليم انزلهُ الله عليهِ وان الوصايا العشر اوَّل كتابة كُتِبَت بالحروف الهجائية فلو صحَّ ذلك لما اهمل موسى ذكرهُ وهو حجة قاطعة على عبَّاد الاوثان. والبعض يزعمون انهم المصريون والبعض انهم الهنود والبعض انهم العرب. واما رأي الجمهور فهو انهم الفينيقيون ابناء وطننا الاقدمين كما يشهد بهِ سانكنياثو اقدم المؤرِّخين الفينيقيين واشهرهم ويؤيِّد شهادتهُ بلدي وكورتيوس واوفان وبوسيبيوس وغيرهم. والظاهر ان الفينيقيين تمَّموا ما قصَّر عنهُ المصريون فاستخلصوا من الخط الهيراتي اثنين وعشرين حرفاً وغيروا فيها وابدلوا وجعلوها حروف علة وصحيحة. ولمَّا كان الفينيقيون قديماً اشهر امة باتساع متاجرهم وكثرة متعلقاتهم وطول اسفارهم اشاعوا استعمال الحروف الهجائية في العالم فجرى عليها العبرانيون والعرب والهنود. وحملها قدموس الى اليونان على ما يظن فشاعت عندهم وانتقلت الى الرومانيين والاسبانيوليين والسلاف القدماء والجرمانيين وغيرهم

جيل ابيض البشرة بافريقية الجنوبية * قال الماجور پيتنو البورتكيزي الذي ساح في اواسط قارة افريقية من بنكويلا جنوباً الى تاتال انهُ وجد في اثناء سياحتهِ قوماً بيض البشرة يقطنون الى جوار زامباسي من افريقية الجنوبية واسمهم "كاسكوبر" وهم اشد بياضاً من الجيل القوقاسي وشعر رؤوسهم ناعم يشبه الصوف وعظام خدودهم ناتئان واعينهم مزورة كاعين اهل الصين وهم اقوياء اشداء اذا رموا الفيل بسهم غاص السهم الى ريشهِ في جسم الفيل وهم يقتاتون باصول النبات وبما يقتنصونهُ من الطير ولا يطبخون طعامهم في آنية كباقي اهل افريقية ولا يقيمون ببقعة من الارض اكثر من ليلة. ويصرفون حياتهم في الانتقال من مكان الى مكان مصداقاً لقول المثل "ما لذة العيش الاَّ بالتنقُّل". ومن تنقل تبقل ومن سار مار (النحلة)

مرصد للافلاك في قبرص * تشكلت جمعية من علماء الهيئة بلندن غايتها بناء مرصد للافلاك في جزيرة قبرص على قلة جبل اوليمبس الشامخ. فان راس هذا الجبل فوق السحاب ويشاهد الجو منهُ صافياً من الغمام والضباب وهو جل ما يبتغيهِ علماء الهيئة ليتمكنوا من رصد سير الكواكب والاكتشاف على احوالها دون مانع. وهذا امر لا ينالونهُ بلندن لشدة ضبابها ودخانها الحالك (النحلة)